هو ـ بالتأمل في حالات القصور وعدم التناسق في الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر. وقد ولد سوسير عام 1857 وأصبح له موقع أكاديمي متميّز كونه متخصّصاً في فقه اللغات الهندو ـ أوربية قبل أن يبدأ بعمله الناضج في النظرية اللغوية التي شغلته في سنيّه الأخيرة. وقد ألقى ثلاث دورات فقط من المحاضرات في علم اللغة العام في جامعة جنيف بين عامي 1907 ـ 1911. وكانت مدوّنات طلبته في تلك المحاضرات ـ التي أعدّها وبوّبها زملاء سوسير فيما بعد ـ شكّلت الأساس لعمله الذي نُشر عام 1916 تحت عنوان «دروس في علم اللغة العام».

وتعدّ مسألة إلى أي مدى يعكس النصّ المنشور للكتاب تفكير سوسير في اللغة بصدق مثاراً للجدل. ولكن هذا الجدل لا محلّ له بعد أن بدأ فصلاً لاحقاً في تاريخ الأفكار يبدأ مع كتاب «دروس في علم اللغة العام». وسواء أكان سوسير ليصرّح بهذا النصّ أم لا، فإن النصّ كما نشر يمثّل حجر الزاوية للنظرية اللغوية المعاصرة فضلاً عن كونه البيان الرسمي لحركة فكرية عامة أكثر شمولية في القرن العشرين وقد أثّرت في تخصّصات متباينة مثل علم النفس (السيكولوجي) والأنثروبولوجية الاجتماعية والنقد الأدبي. وتعرف تلك الحركة الفكرية الواسعة في يومنا هذا «بالبنيوية».

وبرغم أن «البنيوية» لم تكن مصطلحاً اخترعه سوسير نفسه أو استخدمه مطلقاً، ولكنه واحد من افتراضات سوسير المركزية ربّما يصاغ كالآتي: لكي نقوم بأيّة دراسة جادّة للظواهر اللغوية يجب علينا أن نعطي الأولوية للفكرة القائلة أن الكلام عبارة عن بنية وأن خصائصه الأساسية ـ أو الوحيدة ـ هي خصائص بنيوية، وكل شيء عن اللغة عدا ذلك هامشي وعرضي، حتى إن الحقيقة القائلة إن الصوت هو الوسيلة المستخدمة كونياً في الفعّالية اللغوية للكلام؛ لأن القول، كما يرى سوسير، يجب أن

وتنطوي جميع المصطلحات الأخلاقية على أنماط مختلطة. فمن خلال عملية التعريف التي وصفناها أعلاه، يمكننا أن نعطي تعبيراً دقيقاً لفكرتنا عن «الخير» و«الشر» و«الصحيح» و«الخطأ» . . . الخ. وقد أدرك لوك أن هذه العملية شبيهة بطريقة التعبير بالبرهان في الاستنتاج الرياضي. وعلى أية حال يبدو واضحاً أن علاج لوك لنواقص اللغة ذو نفع محدود لاستخدامات اللغة في المحادثات العادية. (هل يتحتّم علينا أن نتوقّف في كل مرة نصوغ فيها مسمّى لفكرة معقّدة ونضع له تعريفاً وفقاً للأفكار البسيطة؟) ومع ذلك يبدو أن لوك اعتقد بأن علاجه يكفي للاستخدامات اللغوية في الخطاب العلمي والفلسفي. في الأقل بسبب تأثير فكرة لوك في التعريف نجد أن القرن الثامن عشر كان الحقبة التي طبعت فيها قواميس إنجليزية عديدة مثل (قاموس صامويل جونسون) وقد بلغت فيها المعيارية اللغوية أمدها. وقد يُفهم لوك بأنه يريد أن يقول إن اللغة برغم نواقصها لو أعطيت الاهتمام الكافي من لدن المراجع التربوية أصبحت كاملة لا نقص فيها.

توجد فجوة واضحة غالباً ما يشار إليها في مفهوم لوك عن التعريف بأنه علاج لنواقص اللغة. ولم يبيّن كيف نتأكّد من أن شخصاً آخر يشير إلى الفكرة نفسها كما نشير نحن باستخدام مسمّى لفكرة بسيطة تتعلّق بالتأمّل: كالعقيدة والمعرفة. ولعلّ من الممكن أن يكون باستطاعتنا تمييز الشخص الذي يشير إلى الفكرة نفسها كما نشير نحن باستخدام مسمّى لفكرة بسيطة تتعلّق بالإحساس مثل: اللون الأحمر. ولكن كيف يمكننا أن نميّز فيما لو كانت تشير إلى الشيء نفسه كما نشير نحن باستخدام الرأي أو الفهم أو الإرادة؟ وإذا كانت هذه المفردات تدلّ على الأفكار البسيطة التي تتعلّق بالتأمّل وإذا كانت الأفكار البسيطة مطلوبة لغرض الملاحظة الداخلية (الخاصة) للعمليات الذهنية الموجودة لدينا بالفطرة، كيف يمكننا أن نعرف